صفية بنت عبد المطلب

(الشجاعة القوية)

obeikandl.com

obeikandl.com

صفية بنت عبد المطلب

(الشجاعة القوية)

هيٰ عمة رسول الله ﷺ وشقيقة حمزة أسد الله كانت من أولئك الذين أقبلوا علىٰ الإسلام طائعين بقلوب واعية وهمم عالية، وقد كان إسلام صفية مبكرًا – عندما دعا رسول الله ﷺ عشيرته الأقربين فخصّ ابنته فاطمة وعمته صفية بما أمره الله بتبليغه.

تربيتها لابنها:

هي أم الزبير بن العوام أول فارس سلّ سيفًا في سبيل الله، نشّأته بعد وفاة أبيه علىٰ الفضائل والمثل العليا، ودربته علىٰ فنون القتال، وعلمته الكر والإقدام، فشب بّطلاً مغوارًا، وورث أبناؤه منه الخلق الفاضل والشجاعة النادرة.

شاعرة الهاشميات:

كان شعرها يتدفق من فمها فياضًا بالمعانىٰ الرائعة، ويمتاز بالرقة وصدق العاطفة وروعة الحماسة؛ فقد ورد أنها كانت تهدهد ابنها الزبير وتشجعه بشعر يسيل حماسة وبسالة.

ثباتها وجلدها:

1) عند مقتل أخيها حمزة أسد الله في غزوة أحد رآها رسول الله ﷺ مقبلة تنشده بين القتلىٰ، فقال لابنها الزبير: ردها عن رؤيته فقال لها: يا أمة إن رسول الله يأمرك إن ترجعي، فدفعته في صدره وقالت: ولم؟ قد بلغني أنه قد مُثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضاني بما كان في الله من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله تعالىٰ، فجاء الزبير فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: خلِّ سبيلها – فجاءت واسترجعت واستغفرت له وقالت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإنا لله وإنا إليه راجعون، حسبي الله ونعم الوكيل، غفر الله لك يا أخي وجزاك جزاء عباده الصالحين.

2) شاركت صفية المجاهدين في أكثر الغزوات خلف رسول الله ﷺ تسقي الجند، وتداوي الجرحىٰ وترقب العدو هنا وهناك.

ولما بلغت الستين من عمرها لم يعقها كبر السن عن تأدية ما رأته واجبًا في حماية الدين.

ولم تكن صفية تقف من القتال موقفًا سلبيًا وتكتفي بالسقاية والتمريض، ولكنها كانت تقاتل إذا اقتضىٰ الأمر ذلك، فحينما رأت المسلمين في أحد ينهزمون ويفر أكثرهم ألقت سقايتها، وانتزعت من أحد المنهزمين رمحه، تواجه العدو وهي تزأر بالفارين قائلة: ويحكم، انهزمتم عن رسول الله!!

3) وفي غزوة خيبر كان لها شأن عظيم، فقد اتخذت لها مع رفيدة الأسلمية خيمة تداوي فيها المصابين؛ ولهذا جعل رسول الله ﷺ لها ولأمثالها نصيبًا من الغنائم تكريمًا لهن.

بطولة نادرة:

أن تتصدىٰ امرأة لرجل فتزجره شيء متوقع، أما أن تقتل رجلاً في وقت حرج كان الناس في فزعهم، وزلزال قلوبهم وتذبحه فتفصل رأسه عن جسده فشيء عظيم !!

حدث هذا في غزوة الأحزاب، حيث بدأت جموع الأحزاب حول المدينة تؤجج نيران الرعب في قلوب المسلمين، وبدأ المتحمسون الغادرون من يهود بني قريظة ينزلون من حصونهم إلىٰ منازل المدينة يريدون إرهاب النساء وبث الفوضىٰ في صفوف المسلمين.

كانت صفية مع المؤمنين في حصن لحسان بن ثابت، فمر يهودي يطوف بالحصن، وكانت صفية قد جعلت نفسها رقيبًا يرصد من يحوم حول الحصن فأخبرت بذلك حسان بن ثابت قائلة: إني والله ما آمنه أن يدل علىٰ عورتنا من وراءنا من اليهود، وقد شُغل رسول الله ﷺ فانزل إليه فاقتله.

قال حسان بن ثابت: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، والله لقدعرفت ما أنا بصاحب هذا، عندها أخذت عمودًا ونزلت من الحصن، وضربت اليهودي حتىٰ قتلته فضربته علىٰ رأسه ضربة أردته قتيلا ً ، ثم رجعت إلىٰ الحصن فقالت لحسان: ها قد قتلت اليهودي فاذهب فاسلبه فما يمنعني من سلبه إلا أنه رجل وأنا امرأة،

وقيل: إنها احتزت رأسه بسكين، وقذفت بها من الحصن، فطفق يتدحرج علىٰ سفحه حتىٰ استقر بين أيدي اليهود الذين يتربصون من أسفله، فلما رأىٰ اليهود رأس صاحبهم قال بعضهم لبعض: قد علمنا أن محمدًا لم يكن ليترك النساء والأطفال من غير حماة، ثم عادوا أدراجهم.

ولما علم النبي ﷺ بما كان. قالت صفية: «**فضحك رسول الله ﷺ حتىٰ رأيت أقصىٰ نواجذه، وما رأيته ضحك من شيء قط ضحكه منه**»(1).

في مقعد صدق

هكذا عاشت صفية وهي تؤثر رضىٰ الله علىٰ كل شيء، وظلت وفية بما عاهدت حتىٰ توفيت سنة 20 هـ في خلافة عمر ﷺ عن 73 سنة، ودفنت بالبقيع رضي الله عنها.

خواطر وعبر

1- كانت صفية قدوة في الصبر والجلد في حين كانت النساء في الجاهلية يفعلن الأفاعيل عند فقد الأحبة كما يحدث في جاهلية العصر في مثل هذا الموقف.

2- قدوة في تربية ورعاية المجاهد منذ الصغر، وكم نحن في أمسّ الحاجة إلىٰ ذلك الآن، وأن نطرح الدعة والتدليل الزائد لأبنائنا الأبطال، فالمستقبل ينتظر منهم بطولة الزبير وشجاعته.

3- بدا واضحًا شعور صفية بالمسئولية تجاه من معها دون أن يكلفها أحد بذلك، فهىٰ قدوة لكل مسلمة قوية.

4- في موقفها مع اليهودي كانت حكيمة في اتخاذ القرار وعدم العجلة في التصرف، ونلاحظ أنها لم تخبر أحدًا من النساء حتىٰ لا تحدث بلبلة وينكشف أمرهن لليهود.

5- في شجاعتها وجرأتها ما يثير الدهشة والانبهار ، وما نتطلع إليه في عصرنا الحاضر، لتشارك المرأة في تحرير الأوطان ، ونصرة الحق.

6- يظهر في عدم تعرضها لسلب الرجل مدىٰ ما تتحلىٰ به من العفة والكرامة والحياء، وفي هذا بلاغ لكل مسترجلة أن البطولة لا تعني إن تجلس وسط الرجال كأنها واحد منهم.

* * *

(1) أخرجه ابن عساكر (12/ 433).